



الطائفية ظاهرة مرضية، عانتها شعوب كثيرة، وهي تهدم ولا تبني، وتفرق ولا توحد، وأينما وُجدت تشكل خطراً على النسيج الاجتماعي والسلم الأهلي، ولأجل ذلك يُحذّر العقلاء من آثارها السلبية وحربها المدمرة وفتنتها التي تأكل الأخضر واليابس.

تركيا من الدول التي تتخوف من الصراع الطائفي في المنطقة وامتداد شراراته إلى أراضيها؛ بسبب تركيبتها السكانية، ولهذا نسمع القادة الأتراك كثيراً ما يتحدثون عن مخاطر الطائفية وينذرون منها، كما جاء في تصريحات وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو قبيل زيارته طهران، التي حذّر فيها من اندلاع حرب باردة إقليمية طائفية، ومن مخاطر هذه الحرب المدمرة على المنطقة بأسرها.

ولكن الطائفية تحولت في الآونة الأخيرة –كما حدث لمعاداة السامية– إلى مصطلح فضفاض ليس له معنى واضح ومحدد، يستخدمه كثير من العامة –وحتى الخاصة– بلاوعي ولا إدراك لأبعادها، بل يوظّفه الطائفيون أنفسهم كسلاح ضد كل من يعارض آرائهم ومشاريّعهم الطائفية، وهذا ما يؤدي إلى الخلل لدى الكثيرين في فهم الطائفية وعدم التفريق بين الضحية والجلاد؛ بين من يدافع عن نفسه ووطنه وهويته وعقيدته من هجمات الطائفيين ومؤامراتهم، ومن يمارس أبغض أنواع الطائفية ويعوّلها لتحقيق مصالحها السياسية.

وفي حديثه لوكالة الأناضول للأنباء، تحدث وزير الخارجية التركي عن أن بلاده ضد كل الاستقطابات بين إيران والعرب، وأن هناك من يريد أن يشعل حرباً باردة في المنطقة، وأن تركيا تقف بقوة ضد التوترات الشيعية/السنية، ومصممة على منع حرب باردة إقليمية. ثم قرأنا في مقال الكاتب التركي عبد الحميد بيليجي الذي تابع زيارة داود أوغلو للعاصمة الإيرانية أن الوزير التركي قد أكد للمسؤولين الإيرانيين في أثناء لقاءاته أن منطقة الشرق الأوسط تشهد تحولات كبيرة، وأن الانتخابات الحرة التي تجري فيها تحمل التيارات الإسلامية السنية إلى السلطة، وطرح عليهم هذا السؤال: "ماذا أنتم فاعلون إن انكشف أن كل ما يجري في العراق وسوريا ولبنان من الصراعات الطائفية تقف وراءها إيران؟ وكيف ستقيمون علاقات مع الحكومات السنية التي ستتهدّض ضدكم؟"، ونصحهم بأن يضعوا هذه الحقيقة في الحسبان.

إن كان وزير الخارجية التركي لم يكتشف حتى الآن وقوف النظام الإيراني وراء الفتنة الطائفية في العراق وسوريا ولبنان وغيرها، فإن شعوب المنطقة أدركت ذلك منذ زمن بعيد، وهذا أمر مكشوف لا غبار عليه، كما أن التحذير الذي وجهه القادة الأتراك إلى إيران من مغبة تأجيج الفتنة الطائفية واضح، ولكن الذي لم يتضح بعد هو أين ستقف تركيا في حال استمرت طهران في سياستها الطائفية؟ لا أحد يريد من تركيا الخوض في معارك الآخرين أو أن تخثار أحد المحورين الطائفيين، كما يتخيّل بعض قادتها ومثقفيها، ولكن المطلوب منها أن تحدد موقفها من المعتمدي والمعتمدي عليه، ومن الذي يشعل الفتنة الطائفية والذي يكتوي بنيرانها.

الحقيقة، أني عندما قرأت نصائح داود أوغلو للمسؤولين الإيرانيين في زيارته الأخيرة لطهران تذكرت الزيارة الشهيرة التي قام بها للعاصمة السورية دمشق، ولقاءه المطول مع بشار الأسد. وكان داود أوغلو قد حاول فيها إقناع بشار الأسد بضرورة إجراء إصلاحات عاجلة لتهيئة الشارع السوري، إلا أنه لم ينجح، كما كان متوقعاً، فهل ستنجح زيارته طهران ونصائحه للمسؤولين الإيرانيين في إقناع نظام الملالي بالتخلّي عن تأجيج الطائفية وتوظيفها لمصلحة أجنادته؟ لا أعتقد ذلك.. وهل ستتخذ الحكومة التركية من النظام الإيراني في حال رفض نصائح داود أوغلو الموقف نفسه الذي اتخذه من بشار الأسد؟ هذا أيضاً أمر مستبعد.

الدكتور إبراهيم كالين، كبير مستشاري رئيس الوزراء التركي، يشير في مقاله المنشور في صحيفة "تودايز زمان" التركية بعنوان "الطائفية كارثة على السنة والشيعة" إلى المرجع الشيعي آية الله علي السيستاني كمثال حي لمن يقاوم فتنة الطائفية ولا يقع في فخ الإغراءات الطائفية، ويثنى على "الدور البناء" الذي لعبه السيستاني في نزع فتيل الأزمة، وخفض مستوى التوتر بين السنة والشيعة في العراق. ولكنني أعتقد أن الملايين من العراقيين ومن سكان المنطقة يختلفون مع كبير مستشاري أردوغان في حكمه على السيستاني وما قاله فيه.

إن كانت الحكومة التركية ترى التوّد للنظام الإيراني وإرضاءه أمراً ضروريّاً لمنع الصراع الطائفي في المنطقة أو تُعدُّ آية الله علي السيستاني رمزاً ومعياراً لنبذ الطائفية، فإن من حق دول المنطقة وشعوبها أن تتوجّس من العلاقات التركية/الإيرانية، وأن تضع علامة استفهام كبيرة حول إمكانية الاعتماد على تركيا في مقاومة مشروع المد الطائفي، وكما أن من حق السوريين الحذر من عودة النفوذ الإيراني إلى بلادهم بعد سقوط نظام الأسد عبر البوابة التركية.

عدم الانطلاق من المنطلق الطائفي نقطة إيجابية تحسب لمصلحة الحكومة التركية، ولكن الخلل في فهم الطائفية يربك حسابات حكومة أردوغان. والظروف التي تمر بها المنطقة تفرض على تركيا ألا تظل متفرجة للتحولات المصيرية، ولكن الحساسية المفرطة تجاه موضوع الطائفية مع عدم ضبط مصطلح الطائفية وتحديد حدوده يجعلها رهينة لابتزاز النظام الإيراني الذي يسعى إلى تحبيط تركيا على الأقل في صراعه مع الأنظمة والشعوب العربية. وإن لم تعالج القيادة التركية هذا الخلل فربما تبقى تركيا محيدة - كما يرغب فيه النظام الإيراني -، ولكنها تبقى أيضاً خارج المعادلة.

المصدر: المركز الإعلامي السوري

المصادر: